﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٧﴾ [آل عمران: 37]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد الجملة الدُّعائيَّة الَّتي وردت في الآية السَّابقة بقول أمِّ مريم: ﴿وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، وفيها ما فيها من التّناسب بين اسم مريم، وبين نذْر ما في بطنها محرَّرًا، بيّن سبحانه في هذه الآية أنَّه قَبِلَ نَذْرَهَا، واستجاب دعاءَها؛ إذْ قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، أي: تقبَّل مريم من أمِّها، ورضي أن تكون محرّرة للانقطاع لعبادته وخدمة بيته.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾: جذر الكلمة (قَبِلَ)، وهو يدُلُّ عَلَى مُوَاجَهَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، وَالْقِبْلَةُ سُمِّيَتْ قِبْلَةً؛ لِإِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْهَا فِي صَلَاتِهِمْ، وَهِيَ مُقْبِلَةٌ عَلَيْهِمْ أَيْضًا، وَالْقَبِيلُ: الْكَفِيلُ؛ يُقَالُ: قَبِلَ بِهِ قَبَالَةً، وَذَلِكَ أَنَّهُ يُقْبِلُ عَلَى الشَّيْءِ يَضْمَنُهُ.

والمعنى المحوريُّ: مُقدَّم الشَّيء الَّذي يُتَّجَه إليه منه؛ لملاقاته أو النَّفاذ فيه، كأفواه الجَداول والوِدْيان والعُروق، ومن دخول الجَوْف أُخِذَ معنى الفعل (قَبِلَ)، كقَبول الهدية: أدخلها في حَوْزته، ومنه قوله تعالى هنا: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، وقوله: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر: 3]، وكذلك يطَّردُ معنى كلِّ ما في القرآن من هذا الاشتقاق أو التركيب، فقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾، بمعنى: تكفَّل تربيتَها، أو: رضيَها، ولفظ التقبُّل يقتضيهما، قال الحسن: قَبوله إيَّاها أنَّه صانها عن كلِّ أذًى، ولمَّا كان تقبَّل وقَبِلَ يتقاربان، جَمَع بين التَّقبُّل والقَبول؛ تنبيهًا أنَّهُ جَمَعَ من الأمرين التَّقبُّل الَّذي يقتضي الرِّضا والإثابة، أو أنَّ القَبول من قولهم: فلانٌ عليه قبولٌ؛ إذا أحبَّه من رآه[1].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل)، والراغب، تفسير الرّاغب: 2/531 - 2/532، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قبل).

2) ﴿وَكَفَّلَهَا﴾: جذر الكلمة (كَفَلَ): وهو يَدُلُّ عَلَى تَضَمُّنِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ، والكفيلُ: الضَّامن للشّيء، كَفَلَ به يكفُلُ به كَفالةً، والكافِلُ: الَّذي يَكْفُلُ إنسانًا يعوله، ويُنفق عليه، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، أي: هو كَفَل مريم؛ لينفق عليها، حيث ساهموا على نفقتها حين مات أبواها، وأصل الكفالة: الضَّمُّ، ومنه قولهم: كَفَلَ فلان فلانًا؛ إذا ضمَّه إلى نفسه يموِّنه، ويصونه[1].

3) ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾: جذر الكلمة (حَرَب)، والمعنى المحوريُّ له: هو سَلْبُ الشَّيءِ، أي: سَحْبُه وأخذُه بقوَّة، أو حِدَّة، والمحرابُ: مأوى الأسد، وهو زُبْيَةُ الأَسَدِ تكون في قمَّة الجبل، ومن ذلك كلِّه نفسِّر المحرابَ في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾، ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: 39]، ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ [مريم: 11]، ﴿إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص: 21]: بأنَّه خَلْوة مرتفعة (غُرْفة)، ينفردُ فيها الرَّجلُ أو المرأةُ عن النَّاس، فذاك هو الَّذي يتأتّى معه استعمال: دخل، وخرج، وتَسَوَّرَ، ومحرابُ المسجدِ اليومَ من ذلك؛ لأنَّه يَسْمح للإمام وحده بالتَّقدُّم أمام النَّاس، ويطلقُ المحرابُ على: صَدْر المجلس، والجمع: محاريب، وعلى الغُرْفة، وعلى القِبْلة، ومِحْرابُ المَسْجِد أَيضًا: صَدْرُه وأَشْرَفُ مَوْضِعٍ فِيهِ، ومَحارِيبُ بَنِي إسرائيلَ: مَسَاجِدُهم الَّتِي كَانُوا يَجلسون فِيهَا، ويَجْتَمِعُون فِيهَا لِلصَّلَاةِ.

ثم أطلق المحرابُ عند المسلمين على موضعٍ كشكل نصف قبَّة في طول قامةٍ ونصفٍ، يجعلُ بموضع القبلة؛ ليقفَ فيه الإمامُ للصَّلاة، وهو إطلاق مُوَلَّد.[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بعد أن رفعت امرأةُ عمران حاجتها إلى الله تعالى، استجابَ اللهُ دعاءَ امرأةِ عِمْرانَ، وقَبِل منها نَذْرها أحسنَ قَبول، وتقبَّل وليدتَها مريمَ قَبولًا مباركًا خَرَق به عادةَ قومها، فرضيَ أن تكونَ مُحرَّرةً للعبادةِ وخدمةِ بيته كالذُّكور، مع كونها أنثى وفاءً بنَذْر الأمِّ التَّقيَّة، وتولَّى ابنتَها مريمَ بالرِّعاية فأنبتها نباتًا حسنًا، وصانَها من كلِّ سوء، ويسَّر الله لها زكريا

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والنسفي، طِلبَة الطَّلَبَة: (كفل).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأجدابي، كفاية المتحفّظ، ص: 170، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (حرب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/237.

عليه السلام كافلًا وضامنًا لمصالحها، وراعيا لشؤونها، فأسكنها في مكان عبادته، وكان كلَّما دخلَ عليها في محراب عبادتها؛ وجد عندها رزقًا هنيئًا مُعَدًّا، قال: يا مريمُ مِن أين لكِ هذا الرِّزقُ الطَّيب؟ قالت: هو رزقٌ من عند الله، رزقني إيَّاه، وساقَه إليَّ بقدرته؛ إنَّ الله - بفضله وواسع جوده - يرزق مَن يشاء مِن خلقه رزقًا واسعًا عظيمًا لا يحدُّه حدٌّ، ولا تجري عليه الأعدادُ الَّتي تنتهي[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة التَّفريع في قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾:

الإيذان بسرعة إجابة الدَّاعي الموقن بكرم ربِّه وعونه

قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ تفريع على الدُّعاء مؤذن بسرعة الإجابة، ومعنى ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾: تقبَّل تحريرها لخدمة بيت المقدس، أي: أقام الله مريم مقامَ منقطعٍ لله تعالى، ولم يكن ذلك مشروعًا من قبل[2]، فرضي بها في النَّذر مكان الذَّكَرِ[3]، فتحقَّقت من هذا التَّفريع مسألتان: سرعة الإجابة، ومخالفة المعهود، وكان ذلك خاصًّا بمريم بنت عمران.

سرُّ العدول عن (قَبِلَها) إلى ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾:

بيان كمال الرِّضا وموافقته للعناية الذَّاتيَّة

التَّضعيف في ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ بدل (قبلها)؛ للإيذان بجلالة شأن القبول من حيثُ (الكمُّ)، وكون المُتَقَبِّلِ هو ﴿رَبُّهَا﴾؛ لما فيه من حسن الرِّعاية وكرم الولاية، ودخول الباء على ﴿بِقَبُولٍ﴾؛ لتوكيد الصِّلة بين الفعل (تقبَّل)، ومصدره المُبيِّن لنوعه (قبول)[4]، وقيل: الباء زائدة مؤكَّدة لمضمون الجملة، والقَبول مصدرٌ مؤكِّد للفعل السَّابق، وأصل نظم الكلام: تقبَّلها قبولًا حسنًا، وإنَّما عدَلَ عن الظَّاهر؛ للإيذان

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 1/207، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 2/87، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 54.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 3/235.
(3) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 2/14.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/160 - 161.

بمقارنة التَّقبُّل لكمال الرِّضا، وموافقته للعناية الذَّاتيَّة، فإنَّ صيغة (التَّفَعُّلِ)، المرادُ بها في حقِّه تعالى ما يترتَّبُ عليها من كمال قوَّةِ الفعل وكثرتِه، وقيل: القَبولُ ما يقبل به الشَّيء، وهو اختصاصُه تعالى إيَّاها بإقامتها مُقام الذَّكَر في النَّذر، ولم تُقبلْ قبلها أنثى، أو بأن تسلَّمها من أمِّها عَقيبَ الولادة قبل أن تنشأ، وتصلُحَ للسِّدانة[1].

سرُّ العدول في المرّة الثَّانية عن التَّقَبُّل إلى القبول:

إظهار العناية العظيمة في تربيتها ورعايتها منذ صغرها على حبِّ الله تعالى

وقوله: ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، الباء فيه للتَّأكيد، وأصل نظم الكلام: فتقبَّلها قبولًا حسنًا، فأدخلت الباء على المفعول المطلق؛ ليصير كالآلة للتّقبُّل، على سبيل الجناس المغاير بين اللَّفظتين، فكأنَّه شيء ثانٍ، وهذا إظهارٌ للعناية بها في هذا القبول[2]، أو بوجه حسنٍ يُقْبَلُ به النَّذائر، وهو إقامتها مقام الذَّكر، أو تسلُّمها عَقِيبَ ولادتها، قبل أن تكبر، وتصلح للسّدانة[3].

دلالة استعارة الإنبات لمعنى الرِّعاية:

بيان كمال رعاية الله تعالى لها وتربيتها جسديًّا وروحيًّا

معناه: وأنبتها، فنبتت هي نباتًا حسنًا، قال ابن عبَّاس في قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾، أي: سلك بها طريق السُّعداء[4].

وممّا يشابه المعنى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [نوح: 17]، والمعنى: رعاها، ونمَّاها تنمية جسديَّة وروحيَّة، فأمَّا الجسديَّة؛ فرعاها، وأنبتها على أحسن تقويم، وأنبتها كأحسن نبات، فرعى نبتها، كما يُرعى النَّبات، حتَّى يقوى عوده، وهي استعارة تصريحيَّة تبعيَّة، حيث أنشأها، كما ينشأ النّبات، وفائدة هذه الاستعارة: بيان حسن النَّشأة، فيكون ثمرها على أحسن ما يكون الثَّمر.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/29.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/235.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/14.
(4) الخازن، لباب التأويل: 1/340.

وأمَّا التَّربية الروحيَّة؛ فيكون قوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا﴾، أي: ربَّاها تربية حسنة، وتقدير الكلام: أنبتها، فنبتت نباتًا[1]، فجيء بالجناس المغاير بين لفظتي النَّبات والإنبات؛ ليشمل الإنبات المعنى المجازيَّ الدَّالَّ على تربيتها الأخلاقيَّة والروحيَّة بما يُصلِحها في جميع أحوالها[2].

قال الزَّمخشريُّ: "نباتها مجاز عن التَّربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها في جميع أحوالها، كالصَّلاح والسَّداد والعفَّة والطَّاعة"[3]، وممَّا يدلُّ على هذا الإنبات قوله بعد ذلك: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾، وكفالة زكريَّا لها، معناه: أن تعيش في كَنَف نبيٍّ.

وهذه العناية الإلهيَّة العظيمة الظَّاهرة من قوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ إرهاص بأنَّه سيكون منها رسول، وسيكون خاتم رسل بني إسرائيل.

دلالة عطف الخاصِّ على العامِّ:

الدِّلالة على أنَّ كفالة العبد من تمام تقبُّل الله له

قوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ عطف الخاصَّ: وهي (الكفالة)، على العامِّ: وهو (التَّقبُّل)، وفي هذا العطف توطئة لما بعده[4]، وقيل: معنى التَّقبُّل والقبول، أي: التّكفُّل في التَّربية، والقيام بشأنها[5] على التّرتيب، وإنَّما قال: ﴿بِقَبُولٍ﴾ للجمع بين الأمرين، يعني: التّقبُّل الَّذي بمعنى: التَّكفُّل، والقبول الَّذي بمعنى: الرِّضا[6]، فيكون بذلك قد انتقل من الخَاصِّ إلى العامِّ.

وقد عرف هذا القبول بوحي من الله إلى زكريَّا بذلك، وأمره بأنْ يكفلها زكريَّا أعظم أحبارهم، وأنْ يوحى إليه بإقامتها بعد ذلك لخدمة المسجد[7].

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/532.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 2/14.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/354.
(4) عبد العظيم المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/161.
(5) الخازن، لباب التأويل: 1/341.
(6) الخازن، لباب التأويل: 1/341.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/235.

ودلَّ قوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾: إنَّما كانت كفالتها بعد طفولتها، وحجَّة ذلك بوجهين: الأوَّل: أنَّه تعالى قال: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، ثُمَّ قال: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾، وهذا يوهم أنَّ تلك الكفالة بعد ذلك النَّبات الحسن، والثَّاني: أنَّه تعالى قال: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّها كانت قد فارقت الرِّضاع وقت تلك الكفالة، والجوابُ على القول الأوَّل: أنَّ الواو حرفُ عطف للجمع، لا توجب التَّرتيب، فلعلَّ الإنبات الحسن وكفالة زكريَّا حصلا معًا، وأمَّا الحجَّة الثَّانية؛ فلعلَّ دخوله عليها، وسؤاله منها هذا السُّؤال، إنَّما وقع في آخر زمان الكفالة[1].

تنوُّع الفوائد البلاغيَّة لـ ﴿كُلَّمَا﴾:

تفصيل ما أجمل من التَّقبُّل والقبول والإنبات

قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ﴾، كُلَّمَا: ظرف عَلى أنَّ (مَا) مصدريّةٌ والزَّمان محذوف، أي: كلَّ زمانِ دخولِه عليها، أو كلَّ وقتٍ دخل عليها فيه[2]، ومن فوائده البلاغيَّة في الآية الكريمة:

أوَّلًا: كون ﴿كُلَّمَا﴾ استئنافًا لتفصيل بعض ما أُجمل في التَّقبُّل الحسن من وجدان الرِّزق عند مريم.

ثانيًا: إفادتها الحصر؛ وأنَّ زكريَّا ما دخل على مريم إلَّا وجد عندها ما تحتاج من طعام وشراب[3]، والتَّقديرُ: كلَّ وقت دخول زكريَّا عليها وجد عندها رزقًا[4].

تكرار ذكر الرِّزق بعد ذِكْرِ الإنبات:

رِزقُ الله تعالى لمريم كرامةٌ لها وإرهاصٌ لدورها المرتقب

اختُلف في الرِّزق، فقيل: إنَّ زكريّا عليه السلام كان يجد عندها طعام الشِّتاء في الصَّيف، وطعام الصَّيف في الشِّتاء، ولم تكن على صلة

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/26.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/30.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/161.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/236.

بأناس أو خدم يأتونها بشيء، ولو كان أحدٌ يأتيها بالرِّزق غير زكريَّا من حيث لا يعلمه؛ لَمَا أعاد الله ذكره تعجُّبًا من أمرها[1].

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾:

تخريج الاستفهام على معنى التَّعجيب

قوله: ﴿قَالَ يَٰمَرۡيَمُ﴾ استئناف بيانيٌّ مرتَّب على سؤال مقدّر: ماذا قال زكريَّا؟ فيأتي الجواب قوله: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾، وهو استفهام مشوب بالتَّعجيب، وهذا ما يقتضيه المقام[2]، و﴿أَنَّىٰ﴾ استفهام عن المكان، أي: من أين لك هذا؟ فلذلك كان جواب استفهامه قوله: ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾[3]، فاستفهام زكريَّا مريم عن الرِّزق؛ لأنّه في غير إبَّانه ووقت أمثاله، قيل: كان عنبًا في فصل الشِّتاء[4]، وقيل: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾، لاستكثار ما يرى عندها، واعتبارُ السُّؤال عن المكان أصحُّ[5].

وإنَّما خاطبها عليها السلام بذلك، مع كونها بمعزلٍ من رتبة الخطاب؛ لما علم بما شاهده أنّها مؤيَّدةٌ من عند الله بالعلم والقدرة[6].

نكتة ذكر المسند إليه في الجواب:

تعظيم للرِّزق واعتراف بفضل الرَّازق

﴿قَالَتۡ﴾: استئناف لما قبله، كأنَّه قيل: فماذا صنعت مريمُ، وهي صغيرة لا قُدرةَ لها على فهم السُّؤال وردِّ الجواب؟ فقيل: ﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، فلا تعجبْ، ولا تستبعد[7]، فقوله: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، ولم يكتفِ بالقول: ﴿مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾؛ لما في ذلك الرِّزق من شأن في حياة مريم، وحضوره في ذهنها[8]، فقالت: ﴿هُوَ﴾ إيغالًا في الشُّكر والعرفان لله تعالى.

(1) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/533 - 534.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/161.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/237.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/237.
(5) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/278.
(6) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 2/15، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/30، والآلوسي، روح المعاني: 2/135.
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/30.
(8) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/161.

بلاغة حذف الجُمَل في القصَّة القرآنيَّة:

دلَّ قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ على كلام محذوف، أي: فكانت مريم ملازمة لخدمة بيت المقدس، وكانت تتعبَّد بمكان تتَّخذه بها محرابًا، وكان زكريَّا يتعهَّد تعبُّدها، فيرى كرامة لها أنَّ عندها ثمارًا في غير وقت وجود صنفها[1]، فهذه كلُّها جُمل محذوفة، وهذا من جميل النَّظم القرآنيِّ في القصَّة؛ إذْ لا يكاد السَّامع أو القارئ للنَّصِّ أن يُحسَّ بحذف هذا الكمِّ من الجمل؛ فقد أُجملت عبارات القصَّة بكلِّ هذه المعاني، وصوَّرتها تصويرًا خفيًّا في إيجازٍ مُعجز.

حـذفُ الجمل مـن الإيـجـاز المـفـضي إلى الإعجاز

نكتة التَّعبير بالفعل المضارع في ﴿يَرْزُقُ﴾:

لمّا وصف رزق الله لمريم؛ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ﴾ بصيغة المضارع الَّتي تفيد التَّجدُّد والاستمرار، فكان رزقه لها متجدِّدًا مستمرًّا متبدِّلًا متنوِّعًا، والتّنكير في الآية ﴿رِزْقًا﴾ أفاد ذلك التَّنوُّع، وتلك الكثرة، ومن جميل السُّؤال أو ما يمكن الوقوف عليه والاستفسار عنه: أين يذهب طعام أمسِ، أو الَّذي قبله ممَّا بقي منه؟ فدلالة المضارع أفادت التَّجدُّد المستمرَّ، في الرِّزق القادم من السَّماء، وإدارة هذه المائدة برعاية الله تعالى.

رزق الله واسع لا يَـنـفـدُ ولا يـغـيـض، بـل يتجدّدُ ويزيد

سِرُّ الكناية في قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

الحساب في اللُّغة: التَّقتير والتَّضييق[2]، والحساب في قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بمعنى: الحصر؛ لأنَّ الحساب يقتضي حصر الشَّيء المحسوب بحيث لا يزيد ولا ينقص، فالمعنى: أنَّ الله يرزق من يريد رزقه بما لا يُعرف مقداره؛ لأنَّه موكول إلى فضل الله[3]، فهو كناية عن الكثرة والتّنوُّع في الرِّزق، أي: بغير تقدير لكثرته، أو من غير

بيان كـثرة رزق الـلـه وتَـنَـوُّعِـهِ وعدمِ نفاده

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/236.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/278.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/237.

مسألة سألها على سبيل يناسب حصولها، وهذا كقوله: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطَّلاق: 3][1]، فقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، هذا يحتمل أن يكون من جملة كلام مريم، أو أن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى.

تكرار مادّة (الرِّزق):

الحضور المكثّف لمادّة الرِّزق للتأكيد على أنّه رزقٌ حقيقيّ لا مجازي

تكرّرت كلمة الرِّزق أكثر من مرّة، فأتَتْ في قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾، وفي قوله: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ لاعتبار الحقيقة في الرِّزق لا المجاز، وأنَّه رزق يأتيها من عند الله دون وسائط بشريَّة.

دلالة التَّذييل بالعبارة الجارية مجرى التَّمثيل:

تقرير مضمون ما سبق وتأكيد حقيقة الرَّازقيَّة التي هي عنوان الرُّبوبيَّة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تذييلٌ مقرِّر ومؤكِّد لمضمون الكلام السَّابق، وتوكيد الخبر: بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾؛ ليُكافئ الدَّهشة والتَّعجيب في سؤال زكريَّا عليه السلام وتكرار الإسناد في الجملة: مرَّة إلى المسند إليه، وأخرى إلى الفاعل الضَّمير العائد على المسند إليه؛ لما مرَّ من مكافأة ما في السُّؤال من تعجيب ودهشة، ولأنّ مضمون الجملة حقيقة عظيمة، ومن حقِّ الحقائق العظيمة أنْ يُعبّر عنها بأسلوب فخم عظيم مثلها[2].

ولمَّا كانت هذه العبارة ردًّا على لسان مريم عليها السلام حين تحدَّثت عن الرِّزق الَّذي يأتيها من عند الله؛ أصبحت بعد ذلك تمثيلًا لكلِّ موقف، يُرى فيه عجيب رزق الله تعالى لعباده كثرة وتنويعًا، وإغداق النِّعم على عباده، فيقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 8/28.
(2) المطعنيُّ، التفسير البلاغيُّ للاستفهام: 1/161.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»